

كيف تهض بالريف المصرى ثقافيا

لحضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

ألقيت هذه المحاضرة في قاعة بورت التذكارية

سيداتى وسادتى :

أخشى ألا أحدنكم بشيء في هذه المحاضرة . فان آرائى في نشر الثقافة معروفة قد نشرت في كتب وفي فصول للصحف والمجلات . حتى أنى أقيمت اليوم وأنا أجد في نفسى ترددًا شديدًا لأنى كنت أحدث نفسي بأنى سأعيد عليكم ما تعرفون . وأنا أعلم الناس بأن الحديث المعاد من أنفض الأشياء . ولكنى لم أتعود أن أرد لقسم الخدمة العامة طلبا إذا طلب إلى شيتا . فأعثر اليكم إذن مما قد يعرض لكم من السأم والملل أثناء هذا الحديث الذى أخشى أن يكون معادا . الواقع أن مسألة الريف فيما يتصل بالثقافة على أقل تقدير ليست من الخطورة أو من الدقة بالمكان الذى تشغله مسائل أخرى تتصل بالريف لسبب بسيط جدا وهو أن مسائل الريف لم تتصل بالثقافة ، وإنما هى مسائل الشعب المصرى فلا أكاد أجد فرقا بين الريف وبين المدن أه بين ناحية من النواحي المصرية وبين النواحي الأخرى ، ولا أكاد أجد فرقا بين أجزاء البلاد المصرية فيما يتصل بمسألة الثقافة . فالشعب المصرى كله فى حاجة إلى أن ننظمه من الناحية الثقافية ، ويستوى فى ذلك ريفه ومدنه ، وتستوى فى ذلك طبقاته المختلفة . ولا أكاد أشعر بأن هناك شيئا يقتضى أن نعتنى بعناية خاصة بالريف إلا إذا لاحظنا أن ظروف الحياة الحديثة قد حملت المشتغلين بنشر التعليم لأسباب ليس هذا موضع بحثها قد حملتهم على أن يعنوا بالمدن أكثر من الريف . فكثرت المدارس فى المدن وفى المراكز الكبرى وقلت فى الريف قلة شديدة . فمن هذه الناحية يمكن أن يقال إن الريف فى حاجة إلى أن نعتنى بنشر التعليم فيه أكثر من المدن التى نشر فيها التعليم ، ولكن هذه مسألة قد تتصل بالكمال كما يقال ولا تتصل بالبيان وهى مشكلة سيحلها الزمن الذى يحل أكثر المشكلات . والمسألة الحقيقية إذن ليست هى مسألة انهاض الريف من الناحية الثقافية وإنما هى مسألة انهاض الشعب المصرى من الناحية الثقافية .

فالشعب المصرى فى حاجة إلى أن نعتنى بتثقيفه عناية تامة . وهنا تعرض المشكلات الخطرة التى تتصل بتعليم الشعب وتثقيفه لكي يعيش عيشة تلائم الظروف الحديثة التى تحيط به فى هذه الأيام أولا . وهذه المسألة يخيل إلى الناس أنهم قد فرغوا من حلها . وهم فى حقيقة الأمر قد فرغوا من حلها من الوجهة النظرية . فليس يوجد مصرى يمكن أن يناقش الآن فى أن نشر العلم والثقافة ضرورة من ضرورات الحياة الحديثة . وليس يوجد مصرى

يمكن أن يناقش الآن في أن من الواجب الذى ينبغى أن تهض به الدولة وأن ينهض . به القادرون على المشاركة في نشر التعليم في جميع طبقات الشعب ، بحيث يكون أبناء الشعب جميعا سواء في تلقى مقدار مشترك من التعليم . هذه مسألة فرغت مصر منها وانهق المصريون عليها اتفاقا لاخلاف فيه ولا يتعرض لمناقشة أو جدل ، بل ذهبنا في ذلك الى أبعد من هذا . وينص الدستور المصرى على أن التعليم الأولى يجب أن ينتشر ويجب أن يكون الزاميا تهض به الدولة . ويرسل الآباء أبناءهم الى المدارس راغبين راضين فان لم يفعلوا أكرهتهم الدولة على أن يفعلوا . فمن الحياة النظرية إذن اتفقنا على حل المسألة الأولى . ولكن الاتفاق النظرى شىء والتنفيذى شىء آخر . صدر الدستور المصرى منذ أعوام طويلة وصدر مشتملا على هذا النص . ومن قبل أن يصدر الدستور المصرى عينت الحكومة بشأن التعليم الأولى وبمحت هذه المسألة منذ سنة ١٩١٧ ولكننا الآن في سنة ١٩٤٠ وما أظن أننا نستطيع أن نقول الآن إننا راضون عن الجهود التى بذلت في نشر الثقافة العصرية في طبقات الشعب أو نشر التعليم الأولى في طبقات الشعب المصرى ، فما زالت الكثرة العظمى من الشعب جاهلة لا تقرأ ولا تكتب ، وما زال هذا التعليم الأولى الذى وصلنا الى اذاعته نوعا ما عاجزا عن أن يحقق الغرض أو الأغراض التى من أجلها ينشر التعليم في بلد من البلاد . والذين يعنون بنشر هذا التعليم في وزارة المعارف أنفسهم يعترفون بهذا النقص ويعترفون أولا بأن التعليم لم ينشر كما كان ينتظر أن ينشر . ويعترفون بأن هذا التعليم وبأن المقدار الذى نشر من هذا التعليم لم يحقق الغرض الذى ينتظر ومن أجله وجد . ويحاولون بالنشرات واللوائح والمراسيم والقوانين أن يعالجوا هاتين المشكلتين . وكيف نستطيع أن نشر التعليم بحيث يشمل الشعب كله في أقل وقت ممكن . وكيف نستطيع أن نشر التعليم بحيث يؤدى الى تحقيق الأغراض التى تنتظر من نشر التعليم ، ثم إنهم في الوقت نفسه يبذلون جهودا وعناية لتمثيل هذه الأغراض التى تتطلب من نشر التعليم الأولى ويختلفون عليها اختلافا ظاهرا ، فمنهم من يكفى من نشر التعليم بمحاربة الأمية بحيث يتعلم الطفل القراءة والكتابة وشيئا من الحساب ، ومنهم من يرى أن هذا المقدار ليس بشىء ، ومنهم من يرى ألا بد من أن تتجاوز هذا المقدار الى مقدار آخر ثم يختلفون في هذه المقادير ، فمنهم من يذكر في هذا التاريخ والجغرافية ومنهم من يضيف لها اللغة العربية وغير ذلك وهم اذا اجتمعوا وتناقشوا وجدل بعضهم بعضا أتعبوا أنفسهم وأتعبوا سامعيهم في البحث عن الأغراض التى تقصد من نشر التعليم .

ولست أخفى عليكم أن هذه المناقشات التى تتصل بالأغراض التى تقصد من نشر التعليم هذه المناقشات أراها من السخف والاطالة أقرب الى أى شىء آخر . فالتعليم الأولى ينشر لغاته وليس من المهم أن يكون هناك غرض معين تسير عليه وتبينه تبينا واضحا ونقيم عليه أساس ما ننشر من التعليم .

وإنما التعليم ضرورة من ضروريات الحياة الانسانية في هذه العصور التي تعيش فيها الأمم عيشة حضارة ورقى . فكما أن الناس لا يبعثون قبل أن يأكلوا لماذا يأكلون ويشربون وكما أن الناس لا يبعثون قبل أن يتنفسوا لماذا يتنفسون ولماذا يتعلمون، وإنما ينبغي أن يتعلموا لأن التعليم جزء توام لهذه الحياة التي نعيشها .

وليس معنى هذا أن التعليم يرمى الى غرض أو أغراض معينة، فالعالم يتحقق غرضا معيناً ولكننا اقتنعنا بأننا كل لتقى الجوع ونشرب لتبقى ما يترتب على الظلم من الآلام . واقتنعنا بهذا منذ نشأنا . وأصبح اقتناعنا بأن هذا شيء عادي من الأوليات . فنحن نأكل ونشرب ولا نتناقش في هذا . وإنما لم نتفق بعد بأننا في حاجة الى أن نتعلم أو أننا لم نتفق بعد بما نستفيد من التعليم ، لهذا نتناقش لماذا نتعلم ؟ والغريب أن الذين يتناقشون في الأغراض التي ينبغي أن يحققها التعليم ليسوا هم الذين يحتاجون الى التعليم ولكنهم هم المتعلمون الذين ينبغي أن يقوموا بالتعليم ، وهم الذين لا يحسون الجهل ولا يتعرضون لآلام الجهل ولا يشعرون بما يقتضيه الجهل . هؤلاء الناس هم الذين يتناقشون في التعليم لا الأغراض التي ينبغي أن تطلب الى التعليم بالضبط كما يتناقش الرجل الذي أكل حتى شبع وشرب حتى روى . والذي أترف حتى أخذ حظه الكافي أو أكثر من حظه ، كما يتناقش مع نظيره ، في حاجة الى أن يطعم طعاما حسنا ، وهل من الضروري أن يأكل الفلاح لونا واحدا أو ألوانا من الطعام ، وهل من الضروري أن يشرب الفلاح ماء نقيا، وإذا عرضت على هؤلاء المترفين وقضيت عليهم أن يأكلوا من هذا اللون لضاقوا اذا عرضت عليهم أن يشربوا الماء القذر ولا يشربوا الماء النقي ، ولكنهم لا يضيعون ولا يشعرون حين يتحدث بعضهم الى بعض بوجوب أن يرفه على الفلاح فيما يأكل وفيما يشرب وفي حياته المادية على اختلاف فروعها فالذين يتعلمون يريدون حصتهم من العلم وهم الذين يتساءلون عن أغراض التعليم . وهم الذين يتساءلون على مقدار حصة الفلاحين أو الشعب في العلم ، ذلك لأنهم لم يتصلوا بأنفسهم ولم يقتنعوا بعد ولم يتصلوا كذلك بغيرهم ، والذي ينقصنا هو شيء لا يتصل بقولنا وملكنا المفكرة بمقدار ما يتصل بقلوبنا وشعورنا وإحساسنا ، وبمقدار ما يتصل بشعورنا بهذه الغاية . فثمة التضامن بين أفراد الشعب وبين أفراد الطبقات مع أنه ليس هناك فرق بين أفراد الشعب . ولو أننا أحسنا أنه ليس هناك فرق بين أفراد الشعب ، ولو أننا وضعنا أنفسنا في مكان الفقراء والبؤساء ومتوسطى الحال الذين حرموا لذة الطعام والشراب ولذة التعليم ، ولو أننا أحسنا ما يحسون ووجدنا ما يجدون وشعرنا بالآلام الحرمان كما يشعرون ولو أننا أحسنا هذا وشعرنا بهذا ولاحظنا أن في هذا الحس والشعور آلاما وحرمانا لأحسنا حاجة الناس الى التعليم . كما أنهم يريدون أن يعيشوا كما نعيش وأن ينعموا بالحياة كما ينعم المترفون . فالمسألة إذن تتصل قبل كل شيء ، بالقلب أكثر مما تتصل بالعقل . وتتصل بالشعور

والتضامن أكثر من أى شيء آخر ، ومن هذا أريد أن يكون هذا الحديث الذى أتحدثه اليكم الآن ، أريد أن يكون هذا الحديث موجها الى قلوبكم لا الى عقولكم ، فقولكم حلت المسألة وكلكم مقتنعون أن نشر الثقافة ضرورة من ضرورات الحياة وبأن الشعب المصرى يجب أن يذاع التعليم فيه على أساس المساواة بين طبقاته جميعا ، بين الفقير والغنى وبين اليسر والعسر ولكن الشيء الذى ينقصنا جميعا هو المجهود الذى ينبغى أن يبذل لتحقيق هذا الشيء الذى اقتنعنا به وأمانا به إيمانا تاما . وهذا الجهد لا نبذله الا اذا تبصرت به قلوبنا ، والا اذا وضعنا أنفسنا موضع الذين نريد أن نعلمهم ونعرض فيما بيننا وبين أنفسنا لما يتعرض اليه هؤلاء الناس من آثار الجهل .

الواقع أن فى حياتنا المصرية فى هذه الأعوام الأخيرة ظاهرة مؤلمة وخطيرة . نلاحظها ولكننا نحاول أن نخفيها على أنفسنا ، ونحسبها فى كل يوم ولكننا نستحى أن نجهر بها . وهذه الظاهرة أن هناك قوما من المصريين يظهر أنهم قد استكثروا ما وصلت اليه مصر من الرقى على ضآلته ، ويستكثرون ما وصل اليه المصريون من التعليم على قلته ، وأنهم يستكثرون ما أتبع للصريين من الحرية أولا ومن التعليم ثانيا ، ويظهر أنهم يخشون من نتيجة انتشار التعليم أخطارا هائلة يريدون أن يحاوطوا لهذه الأخطار ولكنهم لا يجرون على أن يظهروا هذه الآراء . ومن العجيب أن هؤلاء القوم هم هم بعينهم الذين كانوا يدعون الى نشر التعليم منذ عشرين ماضت ، وهم هم بعينهم الذين كانوا يجاهدون فى سبيل ترقية الحياة المصرية منذ أعوام . وهم لا يجرون على أن يقولوا لأنفسهم إن آراءهم فى هذه المسائل قد تغيرت ، لا يغيرون أن يقولوا هذا لأنفسهم فضلا عن أن يقولوا هذا للناس ، وهم يشعرون بهذا الشعور فى أنفسهم ، ويتحايلون لأنفسهم بأنفسهم كما يتحايلون على اظهاره للناس اذا تحدثوا للناس . وتراهم يتحاملون لذلك أسبابا وهمية ينسبونها الى ظروف اجتماعية جديدة يخشى اذا انتشر التعليم أن تتورط فيها مصر ، ويخشى اذا لم نخترس أن تعرض مصر لأخطار عظيمة . وأظن انى لست فى حاجة الى أن أنبهكم الى أن بين المصريين من ينادون بتحديد التعليم وأنه لا ينبغى أن يتسع مجال التعليم ، وأنما ينبغى أن يقبل فيه الناس بمقادير معينة " فئة القادرين على دفع المال " وهى تلك الأسطورة التى يسمونها النبوغ أحيانا .

ولست فى حاجة الى أن أنبهكم أن كل هذه الأشياء تلمس فى الصحف وتلمس أحيانا فى البرلمان ، وتلمس أحيانا فى البيئات المصرية ، والمحاولات من التضييق من نشر العلم للدرجة العالية ، أو الثانوية ، أو الابتدائية أحيانا ، لست فى حاجة الى أن أنبهكم الى هذا . فكلكم يعرف مثل ما أعرف . ولا شك اذا خلا لنفسه تألم لهذا أشد الألم . ولكن الشيء الذى أحب أن نلتفت اليه هو أن هذا النوع من التحايل لم يغب شيئا . فهما يقل القائلون ومهما يتحايلا ، فقد وجدت فى مصر الحاجة الى أن يتعلم المصريون ، وصيغلم

المصريون مهما تكن الظروف ومهما تكن مقاومة نشر التعليم . وهذه الحاجة قد وجدت بحكم الحياة المصرية الحديثة وبحكم الحياة الديمقراطية التي نحياها ، والتي ينظمها دستور يفرض نشر التعليم الأولى على الدولة ويحقق المساواة بين المصريين في درجات التعليم وقد شعر المصري بحقه في هذه الحرية وفي هذه المساواة . ومهما يبذلوا من جهود ومهما ينفق خصوم التعليم الواسع ومهما يحاولوا فلن يغيروا شعور المصريين ، ولن يحولوا المصري عن الاقتناع بحقه في هذه المساواة . وهم في ذلك يخلقون لأنفسهم مشاك كل هم في غنى عن أن يخلقوها ، وخير لهم أن يبذلوها في المعاونة على نشر التعليم وفي تيسير الأمور من أن يضيعوا هذا الجهد في علاج مشكلة لم توجد بعد ولكنها توجد في خيالهم .

والمسألة التي يجب أن نلتفت إليها هي أن حياتنا المصرية ديموقراطية بطبيعتها ولا أقول منذ صدور الدستور ، ولكن قبل أن يصدر الدستور . والدستور إنما جاء منظما لهذه الحياة الديمقراطية . وحياتنا أيها السادة مؤسسة على أشياء من أهمها الدين . والدين الذي تحيا عليه الأمة المصرية الاسلام والمسيحية . وكثرة المصريين مسلمة وقلة المصريين مسيحية ، والدين يقوم قبل كل شيء على المساواة وعلى تحقيق اهدل ، واجتمع على إلغاء الفرق بين الطبقات والفرقة بين الناس في الحقوق الواجبة .

ولأضرب لكم مثلا بسيطا من أصول الدين الاسلامي دين النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسا الى جماعة من كبار قريش وسادتها يدعوهم الى الاسلام وكان معنيا عناية شديدة بمكانة هؤلاء النفر من قريش ، واعتقد أن هؤلاء النفر إذا أسلموا تبعهم غيرهم وزاد عدد الاسلام قوة ، وانهم في ذلك إذا برجل حقير بأئس وضرير هو عبد الله بن أم مكتوم قد أقبل يسعى متعثرا حتى انتهى الى النبي فسأله أن يقرنه وأن يعلمه مما علمه الله ، فقطع هذا السؤال على النبي حديثه الى كبار قريش ، وضاق النبي بهذه المقاطعة فأعرض عن هذا الأعمى ، وألح الأعمى وأمضى النبي في إعراضه ، فأنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه الآية الشريفة :

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُرَىٰ ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ۗ
الَّذِكْرَىٰ ، أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَىٰ فَآَنَتْ لَهُ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ، وَأَمَّا مَنْ
جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَحْسَىٰ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَىٰ ۗ كَلَّا ۗ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۗ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ
فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . . . الخ .

فهذه الآية الكريمة أيها السادة إنما هي عتاب شديد للنبي لأنه تصدى ل هؤلاء المتمازين من صناديد قريش وانصرف اليهم حتى تنكر لهذا الرجل بأئس الذي جاء يلتمس منه العلم فعاتبه الله على هذا ، وأن النبي كان كل ما لقي عبدالله بن أم مكتوم رحب به وقال " أهلا بمن عاتبنى الله فيه " .

هذه الملاحظة التي تتصل بأصل من أصول الدين ، انها تتصل بالدعاية الاسلامية نفسها ولو أننا فكرنا في هذه الملاحظة واتمينا الى النتيجة البسيطة وهي أن الله سبحانه وتعالى لا يفرق بين غني وفقير في الحاجة الى العلم ، وأن الله الذي عاتب نبيه لأنه غني بالأغنياء وكره الناس في الدعوة الى الاسلام ، خالق أن يعاتب أولى الأمر حين يصرفون العلم عن الفقراء والبائسين الى الأغنياء والمترفين ، وليس هناك معنى في حياتنا المصرية إلا أن نتحدث بأن بعض المصريين يستطيعون أن يتعلموا وبعضهم يحسن ألا يتعلموا ، ولا أتحدث عن التعليم الأتولى انما أتحدث عن التعليم كله ، فالمصريون جميعا من حقهم أن يتعلموا ، وعلى الدولة أن تعلمهم ، وتمكنهم من أن يتعلموا على اختلاف درجات التعليم دون أن تضرمهم في ذلك أو تضيق عليهم أو تفرق بينهم بمقتضى هذه الظروف التي لا تغيرق واجباتها شيئا ، وهي ظروف القمطرة على دفع الأجر وعدم القدرة على دفع الأجر ، هذا التعليم الأتولى الذي ينبغي أن تهض به الدولة وأن تبديه وتقدمه الى المصريين جميعا دون أن تتقاضاهم أجرا عليه ، ما هو ، وما يمكن أن تقصد به اليهم أو بعبارة أدق : ما الذي ينبغي أن تعمله الدولة لتعليم المصريين تعليما أوليا ملائما لحقوقهم وملائما لأملهم وحريةهم الجلدية ، وما دمتا نعرف بهذا ويسجل علينا الدستور أننا أمة نعيش عيشة الديمقراطية ، فينبغي أن يكون التعليم الأتولى ملائما لما تفرضه الحياة الديمقراطية على الدولة من جهة وعلى الأفراد والمجموع من جهة أخرى من الحقوق الوطنية ، ولست أعرف تصورا أدق لواجبات الدولة في بلد ديمقراطي من هذا التصوير الذي عاش في فرنسا البائسة الى سنة ١٩٣٦ ، وهو من الواجب على الدولة في بلد ديمقراطي أن تضمن ثلاثة أشياء ، الحرية ، والقوت ، والسلم ، وليس معنى هذا أن الدولة مكلفة أن توزع القوت على الشعب وأن تقدم لكل فرد من أفراد الشعب طعامه وشرا به وهو هادئ مطمئن ، ولكن معنى هذا ان الدولة تهيء أفراد الشعب بالتعليم وبإزالة الحواجز والموانع ، ومفروض عليها أن تهيئهم لكسب عملهم دون أن تكون هناك تفرقة بينهم وهي من أجل ذلك مضطرة الى أن تعلمهم .

ولا يستطيع الفرد أن يعيش وحده في هذا العصر ، فلا بد أن يتعامل الفرد مع أمثاله من المواطنين ، كيف يتحدث اليهم ليفهموه ويفهمهم ، وكيف يعيش معهم ليحترموا حقوقه عليهم وايحترم حقوقهم عليه ، وكيف ينهض بواجباته وهو مطمئن الى أن غيره سيقوم بواجباته أيضا . ومن أجل هذا لم يكن بد للدولة من أن تعلم الناس الذين يعيشون فيها ، ولا بد أن تعلمهم الى جانب القراءة والكتابة أوليات الحساب ، لأن البيئة التي يعيشون فيها ويتصلون بأعضائها تعلمهم من أمر هذه البيئة أشياء أولية ، فالشباب المصري في حاجة الى أن يعرف تاريخ هذه البيئة التي يعيش فيها ، ولا بد من أن يعرف حدود بلاده وأن يعرف حدوده الجغرافية ولو الى حد ما ، لأنه لا يستطيع أن يعيش مع مواطنيه إلا اذا عرفهم على هذا

التجو وعرفوه على هذا النحو، ولا يستطيع أن يعيش إلا إذا صرف اللغة والجغرافية وعرف كل هذه الأشياء التي تمكن الأفراد من أن يعاشر بعضهم بعضا وهم قادرون على أن يعيشوا بعضهم بعضا ومن أن ينهوا بعضهم بعضا ومن أن يساعد بعضهم بعضا، فلا شر اذن من أن تعلم الدولة التلاميذ في التعليم الأولى اللغة العربية وتاريخ مصر وجغرافية مصر والنظم التي تعيش عليها الأمة المصرية .

والدولة ليست مسئولة عن هذا المقدار وحده ولكنها مسئولة معه عن أشياء أخرى وهي العناية بأجسام هؤلاء الناس وصحتهم وأخلاقهم وعقولهم . وهذا هو المقدار الضروري الذي لا بد منه . وإذا أردنا أن نتصور التعليم الأولى الذي يفرضه الدستور على الدولة على أن توزعه بين الناس مهماختلف طبقاتهم ، وهذا المقدار ضروري لأنه هو الذي يضمن تحقيق المساواة بين الناس وهو الذي يحقق الشركة بين المصريين فيما يكون طبيعة الأمة المصرية وفيما يكون طبيعة الوطن المصري . ومتى اشتركوا في هذا المقدار اشتركا صحيحا أمكن بعد ذلك أن يختلفوا بمقتضى الظروف، ففهم من يتعلموا حتى يتموا التعليم العالى ومنهم من يتعلمون حتى يتموا التعليم الفنى . ومنهم من ينصرفوا الى الحياة العملية لأن الظروف لا تمكنهم من أن يمتصوا في التعليم ولكن الدولة ينبغي أن تعضدهم بشيء من العناية بحيث لا يفسون ما تعلموا في المدارس الأولى والذي أفهمه أن الدولة مضطرة الى أن تذبح هذا التعليم في أسرع وقت ممكن . والذي أعرفه أن الدولة قد أطالت في نشر هذا التعليم . ونعرف أن الدول الأخرى كانت حالها تشبه حالنا فاستطاعت أن تعالج هذه المشكلة وأن تقلل عدد الجاهلين في بلادها أكثر جدا مما استطعنا نحن أن نقال عدد الجاهلين . ومع ذلك فالدولة المصرية لا تتفق قليلا من المال على التعليم ، بل هي تتفق كثيرا حقا ولكن يخيل اليها أنها تتفق هذا المقدار على التعليم الأولى في ظاهر الأمر وعلى أشياء غير التعليم في حقيقة الأمر . فأتتم إذا أخذتم ميزانية التعليم الأولى ورأيتم كيف يدبر هذا المال ، لرأيتم أن الدولة المصرية تعنى بهذه الناحية عناية تامة بإقامة هذه المدارس على النحو الأوربي بنوع لا يمت اليه في تأسيس هذه المدارس وفي العناية بها بحيث تصبح هذه المدارس مصدرا لشيء من الشر .

وأذكر لكم أيها السادة أننا عندما كنا صبيانا وكنا نذهب الى مكاتبنا في الريف لم تكن نجد شيئا من الأذى عندما كنا نجلس على تلك المقاعد الخشبية أو على تلك الحصر . ولم يعننا هذا من أن نتعلم . ولم نجد في ذلك أذى ولا ضررا . فليس من الضروري إذن أن تصرف الدولة فيما تصرف فيه من تأسيس المدارس وإنشائها على هذا الطراز إنما الخير أن تتفق هذه الأموال في نشر التعليم . ولست أدري لم لا يتعلم التلاميذ في المساجد كما كنا نتعلم نحن . ولست أدري لم لا تعنى الدولة بالمكاتب التي تعلمنا فيها فتمنعها قسطنطينية النظافة بحيث تؤهلها لأن يتعلم فيها الأطفال دون أن يكون هناك فرق بينها وبين البيوت .

ولكن هناك مشكلة أخرى في التعليم الأولى ربما كانت أشد ، وهي مشكلة الذين يعنون بهذا التعليم الأولى والذين يقومون بنشر هذا التعليم الأولى ، من هم . وكيف يجب أن يعيشوا وكيف يجب أن يكونوا .

والذي تعرفونه جميعاً أن معلم التعليم الأسمى رجل متواضع ، ومتواضع بأوسع معاني هذه الكلمة . متواضع في تعليمه . ومتواضع في منزلته الاجتماعية . فالدولة تنظر إليه نظرة أقل ما توصف به أنها لا تلائم ما ينبغي لمعلم من الكرامة . ومتواضع في منزلته الاجتماعية بين أهل القرية . فهم ينظرون إليه كما تنظر إليه الدولة ثم هو متواضع بعد هذا كله في المرتب الذي تتفضل الدولة به عليه . وأقل ما يمكن أن يقال : إن الدولة تنسى أن هذا المعلم ينبغي أن تكون له منزلة اجتماعية لا أقول ممتازة لأنى من خصوم الامتياز ولكن ينبغي أن تكون له منزلة اجتماعية معقولة فهو أولاً أمين تستأمنه الدولة على تنشئة الجيل الجديد . والدولة والشعب يطلبون الى المعلم في المدارس الأولية أن يهيئ الطفل ليكون رجلاً حراً يقوم للوطن بالواجبات الوطنية ويستطيع أن يكفل المحافظة على مركز مصر وعزتها واستقلالها . فإذا أردت من المعلم أن يهيئ لك طفلاً كريماً حراً عزيزاً فابدأ بأن تجعل هذا المعلم نفسه حراً عزيزاً وبأن تعلمه تعليماً حسناً . فانك لا تستطيع أن تأخذ علماً من جهل ولا تستطيع أن تأخذ عزة من ذل . فالمعلم الذى لا يحسن علم تاريخ مصر لا يستطيع أن يعلم تاريخ مصر . والمعلم الذى لا يحسن علم الجغرافيا المصرية لا يستطيع أن يعلم الجغرافيا المصرية . والمعلم الذى لم تمكنه ظروف الحياة من أن يكون حراً عزيزاً صريحاً في معاملاته كريماً في علاقاته بالناس ، لا يستطيع أن يكون حراً في معاملاته كريماً في علاقاته بالناس إلا اذا تعلم . فابدأ اذن بتعليم هذا المعلم على أحسن وجه ممكن . ثم عامل هذا المعلم أحسن معاملة ممكنة . واسمح لهذا المعلم أن يكون له مال غيره من المصريين من آمال في الحياة . له أبناء كما لنا أبناء . ومن حقه أن يفكر في أن يربي أبناءه تربية حسنة . ومن حقه أن يفكر في أبنائه ، يجب أن تكون حياتهم خيراً من حياته ، ويجب أن يرقوا الى عالم سلفه هو من المنزلة الاجتماعية ، فمكنه من أن يربي أبنائه ومن أن يريهم على هذا الوجه . وممكنه من أن يسم للحياة . ومن أن تيسر الحياة له وممكنه من أن يشعر بشيء من هذا الأمل الذى يشع الحياة في الفرد والجماعة .

وإذا حققت له هذا فاطلب إليه بعد ذلك أن يعنى بتنشئة الطفل وأن يكون لك طفلاً حراً عزيزاً . اذا استطاعت الدولة أن تصل الى هذا كله .

فما الذى فعلته الدولة . فعلت أيسر وأبسط ما يجب عليها أن تفعله . وهو نشر هذا المقدار الضئيل من التعليم بين طبقات الشعب . ولكن هذا ليس كل ما ينبغي أن تفعله الدولة . واسنأ ملومين اذا طالبنا الدولة بأكثر من هذا . فالدولة تفرض علينا واجبات لها أول وليس لها آخر . والدولة تطلب الى المصريين جميعاً أن يكونوا مستعدين

لبذل أموالهم وأرواحهم إذا طلب اليهم . وكذلك نفوسهم إذا طلبت اليهم ، وكل ما يملكون عند ما تحتاج الأمة الى ما يملكون . ففى مقابل هذه الأشياء التى تطلبها الدولة ، والتى لا نستطيع بحال من الأحوال أن نرفضها إذا طلبتها الدولة ، ففى مقابل هذا كله من حقنا أن نطلب الى الدولة أن تمكننا على الأقل من أن نكون خداما أمناء بطبعنا لنستجيب لها وننفعها دون أن نضرها ونعرضها للخطر . من حقنا على الدولة ومن حق الدولة علينا أن تمكننا من أن نتعلم التعليم الذى يمكننا من أن نكون رجالا متجيين لا أُنْ نعرض الوطن للخطر ونعرض الأراضى الوطنية للخطر ونعرض الثقافة الوطنية للخطر . ومن حقنا ان نطالب الدولة بأن تمكننا من هذا دون أن تطلب منا اجرا ودون أن تطلب اجرا من الأفراد . فالدولة لا تستطيع أن تجيب هذا لأنها فى حاجة الى المال ولكن لها موارد خفية فيما أعتقد لا يستطيع أحد أن يردّها عنها . وإذا احتاجت الدولة الى الضرائب أو الى الدفاع لا يستطيع أحد أن يقول فى الضرائب شيئا . ولا يستطيع انسان أن يفهم لماذا تحتج الدولة بأنها لا تجد من المال ما تنفق على التعليم دون أن تلجأ الى الضرائب لتنفق منها على التعليم . ولماذا تحتج الدولة بأن التعليم الثانوى أو بأن التعليم الصالى يكلفها نفقات هائلة دون أن تلجأ الى الضرائب وإذا كان هذا حقيقيا وإذا كانت ميزانيتها لا تكفى ، وإذا كان البرلمان يراقب ميزانيتها مراقبة دقيقة لتحقيق هذا دون أن تلجأ الى الضرائب .

وأعترف أيها السادة بأنى لا أستطيع أن أفرق بين حاجة مصر الى التعليم وحاجة مصر الى الجيش ، بل انى أعترف لكم أنى أعتقد أن حاجة مصر الى التعليم أشد جدا من حاجتها الى الجيش ، والسبب بسيط جدا ، هو أن الجيش إنما يحتاج إليه لدفع غارات العدو الأجنبية إذا تعرض لها ، وما من شك فى أن كل أمة تتعرض بين حين وحين للغارات الأجنبية فلا بد للجيش للدفاع عنها ، ولكن هناك غارة أجنبية مستقرة فى أراضى مصر تفسد على المصريين حياتهم فى كل يوم . وتفسد أخلاقهم وتفسد عليهم كل شيء ، وهذه الغارة الأجنبية التى تعيش معنا فى الشارع وفى البيت وفى كل مكان ، والتى هى أخطر ألف مرة ومرة على الحياة المصرية ، هذه الغارة المستقرة هى غارة "الجهل" فى الدولة التى تطلبنا بالضرائب وتكرهنا على دفع هذه الضرائب . وعلى الدفاع الوطنى ، من حقها بل من واجبها أن تطلبنا بالضرائب وتكرهنا على دفع الضرائب لأجل دفع هذا العدو المستقر بيننا وهو "الجهل" .

وإذن فلست أدري كيف تسوغ بعض بيئات لنفسها أن تتحرج أو أن تتصور هذا التحرج الغريب ، حرج نشر التعليم وحرج التوسع فى نشر التعليم . حقيقى هذا شيء يعجز عقلى عن فهمه لأنه بطبيعته لا يستطيع فهم "دقائق الأشياء" . ولكن الشيء الذى لا أستطيع أن أخفيه عليكم عن فهم هذه المواقف التى يورجدها الذين يحبون أن يعلموا أبناءهم أن مدارس الدولة لا تكفى لتعليم أبنائكم . فإم لا توسع الدولة الميزانية ؟

يقولون إن الدولة ليس لها إلا جامعة واحدة فلم لا تنشئ الدولة جامعة ثانية ويقولون أشياء كثيرة يمكن أن يرد عليها .

والدولة تتوسع في أشياء كثيرة يمكن ألا تتوسع فيها . فإذا جئنا إلى التعليم الذى لا بد أن تتوسع فيه وجدنا الضيق فى الميزانية . ووجدنا قلة المدارس ووجدنا المشكلات . كل هذا يأتى من سبب واحد هو الذى قلته لكم . وهو أن النشاط الذى امتلأت به قلوبنا ونفوسنا فى أول نهضتنا الوطنية بعد الحرب الكبرى قد أخذ يخبث شيئا فشيئا . وهو أن النشاط قد أخذ يسير من نفوس بعض الناس ، فانتشار التعليم ضرورة من ضرورات الحياة ولكنها ضرورة خطيرة . خطيرة حقا على بعض البيئات .

تصوِّروا الفلاح المصرى الذى يتصوَّر من الآلام والذى يشكو من الجوع والبؤس بما لا يمكن تصوُّره والذى يشعر بالحرمان مصحبا وممسيا ، تصوِّروا هذا الفلاح إذا تعلم تعليما حسنا وتصوِّروا هذا الفلاح الشاب الذى تعلم تعليما حسنا إذا عرضت عليه أو فرضت عليه الحياة التى يحياها أبوه . هل يقبلها . كلا إن يقبلها . ولن يرضى من البؤس والشقاء ما رضى به آباؤه لأنه لن يطمئن إلى هذه الحياة الاجتماعية التى يحياها المصريون الآن وسيحاول تغييرها والشركل الثمر فى ذلك - لأن محاولة هذا التغيير سترفع الأجور ولا ينبغي أن ترفع الأجور - محاولة هذا التغيير أيها السادة سترفع الضرائب ولا ينبغي أن ترفع الضرائب .

وهذه المحاولة ستضى على كثير من الناس أن يقتصدوا من لذاتهم وشهواتهم . والعلة الحقيقية إذن والخطورة التى لا تلائم حق المصريين فى الحرية ، والتى تدعو كثيرا جدا من الناس إلى أن يحاولوا الاقتصاد فى نشر التعليم ، هو الخوف من نشر التعليم ، والخوف من التعليم قد يحول بيننا وبين ما نريد من التوسع فى التعليم الآن .

ولكننى قلت لكم فى أول هذا الحديث إن هذا الخوف وإن هذه المشكلات وهذه المقاومات فى اتساع التعليم ، إن هى إلا تعليلات ومحاولات لا تقضى عنها شيئا ، فقد بدأنا فى حركة ولا بد أن تنتهى هذه الحركة إلى نهايتها، وهذه الحركة التى بدأنا بها هى حركة الحياة الحديثة التى تقوم على انتشار التعليم وعلى المساواة فى نشر التعليم ، ونحن مضطرون سواء أردنا أو لم نرد إلى التعليم وإلى أن نتعلم .

والخير كل الخير أنت يرتقى التعليم وأن تتوسع حياتنا باختيارنا، أو على كره منا، فنحن نقومنا اتساع التعليم . لأن الذين يحاولون التقليل من التعليم أو التقليل من عدد المدارس أو التقليل من عدد المتعلمين ويتعللون لهذا كله بالتعليلات الكاذبة يجب أن يفكروا وأن يقدروا بأنهم إذا نجحوا اليوم فسيخذلون باكرا وسيكفون على أن يعلموا المصريين .